



ندوة دولية

باريس ١٦-١٧ نوفمبر ٢٠٢٢

كُلُّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

التقوى والإيمان في سلوك الحيوان



سلييل الوعل ومنطق الطير¹

¹ Martina Rugiadi, « Un-broken Iconography. The Bird and Quadruped Ceramic Fragment from the Masjid al-jum'a of Isfahan », *Maḥabbatnāma*, Rome, Istituto per l'Oriente, 2020.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾
سورة النور (٢٤)، آية ٤١

" إن لم يكن الله موجوداً فلن سنتوجه بتسايحنا؟"

"الإخوة كارامازوف" لدوستوفسكي

"كُلُّ يَوْثَرٍ لِمَنْ تَصْدُرُ مِنْهُ إِشَارَةٌ، وَكُلُّ يَحَادِثٍ، وَلَوْ بِغَمْغَمَةٍ، لِمَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ الْحَدِيثُ"

جان لوي كريتيين، القديس أغسطينوس والأفعال اللغوية

المنظّمون

جبيوم دو فو دارسي (مختبر "الشرق والبحر الأبيض المتوسط" للمركز القومي للبحث العلمي)
نيكولا باين (تمويل من الاتحاد الأوروبي "الحيوانات في فلسفة العالم الإسلامي")

الشركاء

ديوان الشؤون الدينية لوزارة الداخلية
مختبر الشرق والبحر الأبيض المتوسط

المكان

باريس

Cnrs – Délégation Paris-Villejuif
27 rue Paul Bert, 94 204 Ivry-sur-Seine

(المدخلات عن بعد مرحب بها)

للترشح وتقديم الأوراق:

يرجاء إرسال عنوان البحث مع ملخص مكون من عشرين سطراً كحدٍ أقصى وفهرست المصادر قبل نهاية شهر يونيو/حزيران إلى:

animauxadorateurs@gmail.com



لقد توسعت البحوث حول الحيوان في الإسلام كثيراً، وامتدت إلى ما خارج الحقول التخصصية الكلاسيكية، كتاريخ علم الحيوان والأدب (قصص الحيوان)، لتشمل أيضاً أعمالاً ذات ارتباط وثيق بالفلسفة والدراسات القرآنية والفقهاء والأدب الصوفي. ولهذا فإن كسر عزلة هذه التخصصات يصبح أمراً مشروعاً من أجل الإحاطة بجميع جوانب الموضوع، ومحاولة فهم خصوصيته التاريخية، ونعني هنا الإجابة عن السؤال: ما الحيوان في العصر الكلاسيكي للحضارة الإسلامية؟ حيث إن الخطر الذي تواجهه الدراسات التي تحصر نفسها داخل أسوار التخصص الضيق يأتي من كونها قد تفقد الموضوع حين تدرس مادة قديمة بوسائل ومنهجيات لا تناسب وزمنها.

لقد كان علم الحيوان التصنيفي في العصر الكلاسيكي يعني بتصنيف "أمم" المخلوقات بنفس منطق تصنيف البشر وفي مقارنة مستمرة مع المجتمع الإنساني. وفي الوقت الذي نهم فيه حديثاً بمعاناة الحيوان الجسدية وآلامه الجسمانية، كان السؤال قديماً يدور حول مسائل تتعلق بعلم الخلاص وبالعبادة الإلهية. وقد قامت بالفعل دراسات اتحدت فيها المجالات العلمية المختلفة لدراسة الحيوان وكل ما يدور حوله كما حدث لحيوان كالطاووس على سبيل المثال لا الحصر.

ومع ذلك، فإن ما تُظهره دراسة نصوص الإسلام الكلاسيكي، بما فيها النصوص المتحدثة عن الحيوانات، هو أهمية البعد الديني في وصف الحيوان. ولا نقصد بذلك الجهد المبذول لتشريع معاملات المؤمن مع الحيوانات في إطار الطهارة والذناصة ولا ما يدخل في إطار طقوس المعاملات داخل المجتمع المسلم، بل نقصد الحيوان كمؤدٍ لأفعال دينية. وتقوى الحيوان هذه مصدرها القرآن حيث تتخذ شكلين أساسيين أولهما العبادات الخاصة بالحيوان، والتي تؤدي إلى تطوير تأويل كامل لسلوك الحيوان وأصواته استلهاماً للآيات القرآنية التي تتحدث عن تسييح المخلوقات لله (الإسراء ٤٤، الأنبياء ٧٩، النور ٤١). أما الشكل الثاني فهو الطاعة، وذلك في ضوء الآيات الخاصة بتسخير جميع المخلوقات للإنسان (النحل ٥-٧، الجاثية ١٣). وهكذا فإن تقوى الحيوانات تقع بين التسييح والتسخير.

إن تقوى الحيوان تُعد شكلاً مثالياً للتقوى، وفي الوقت الذي خصصت فيه الكثير من الدراسات لبحث موضوع تسخير الحيوان، قليل منها اعتنى بموضوع تسييح الحيوان على الرغم من وجود مؤلف كلاسيكي غزير حول الموضوع ربما بلغ ذروته مع كتاب "النطق المفهوم من أهل الصمت المعلوم" للكندي، وهو كتاب يجمع حكايات غرضها الوعظ والتحذير وشخصياتها حيوانات ناطقة ومخلوقات صامتة كالجمادات.

وبالتالي يجدر التمييز بين المقاربة الدينية للحيوان والمقاربتين التقليديتين في الدراسات الإسلامية وهما:

- دراسة الحيوان كشخصية سياسية، كما يظهر بشكل أساسي في قصص الحيوان داخل إطار أدب الملوك والشعوب. ومن هذا المنظور، فإن العلاقات بين الإنسان والحيوانات تعكس العلاقات السياسية بين طبقات المجتمع البشري.
- دراسة الحيوان كمخلوق لله وساكن للأرض، كما يقابنا في كتب الحيوان وكتب العجائب والغرائب التي تعني بوصف أعمال الخالق وآياته.

ولكي نميز بين هذه المقاربات المختلفة علينا أن نسأل السؤال التالي: أليست مسألة الطاعة السياسية مرتبطة بالطاعة الدينية ومشروطة بها وبمفهومين أساسيين هما التسخير والتدليل؟ بالإضافة إلى ذلك، فإن كتب العجائب قد نُسجت لكي تتعجب من أشكال الخلاق وتمدح الخالق.

الدراسات الإسلامية

الإلهيات

السؤال الذي يطرح نفسه هو ما الذي يميّز تقوى الحيوانات عن تقوى المخلوقات غير المتحركة وغير الناطقة مثل الكواكب والجبال وأشباهاها من ناحية، وعن تقوى البشر التي أتت من وعظ الأنبياء من ناحية أخرى؟

السؤال إذن أي نوع من العباد تُمثّل الحيوانات؟ وهل يمكن اعتبار بعضها موحّداً أو مسلماً كما رواه الجاحظ ("الحيوان"، ج ٤، ص ٧٨-٨٠) وأقر به إخوان الصفاء (رسالة ٢٢، ج ٢، ص ٣٢٤-٣٢٩)؟ وبما أنّ القضية تتعلق في الأساس بالنجاة، وبما أنّ الحيوان يوصف بأنه تقوي، فهل له قيامة؟ في الوقت الذي نرى فيه دراسات كثيرة عن معاناة الحيوانات ومكافأاتها بعد الموت، بقيت أسئلة أخرى من مثل: هل ستُحاسب الحيوانات يوم الدين فتدخل إما الجنة وإما النار؟ وهل هذا المصير فردي (مرتبط بتصرف كل واحد منهم على حدّ) أم جماعي (مرتبط بالنوع الذي هو منه، إما ملعون مثل الطاووس أو ناج مثل الحمام)؟

أخيراً إذا كان الحيوان عبد الله، لكان الإنسان عبد من بين عباد عدة. الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى التساؤل عن أي نوع من أنواع عباد الله يصبح الإنسان في هذه الحالة، وهذه مسألة مرتبطة بالفرق الهام بين الدين والشريعة.

إنّ تقوى الحيوانات موضوع شائع في كتب السنّة التي تركز على بعض أنواع الحيوانات أكثر من بعضها الآخر. وهكذا تظهر فيها مجموعة حيوانات معيّنة مأخوذة من البيئة المحيطة أو من الخلفية القرآنية للثقافة الإسلامية والتي عادة ما تنصف فيها الحيوانات بالإيمان والتقوى والطاعة، مثل حالة الديك والحمامة والهدهد والنمل. فهل يشبه تدين الحيوان تدين الإنسان حتى تُطبّق طقوس بشرية مثل الآذان والسجود والتسبيح بالشكل ذاته على الحيوانات المختلفة؟ أم على العكس من ذلك فإن تلك الحيوانات تختلف فيما بينها ولكل منها شخصية دينية مرتبطة بتفسير سلوكها؟

التصوّف

إذا كانت القصص عن الزهاد تظهرهم في صحبة الحيوانات في كثير من الأحيان، فهل يروّج الأدب الصوفيّ صورة تقوى الحيوانات؟ فيبدو أنّ الزاهد في هذه القصص هو العابد، وغالباً ما تكون الحيوانات هي الشهود الوحيدة على أفعاله المثالية. يتغير الأمر تماماً مع ابن عربي الذي يمنح الحيوانات التدبير والتكليف ومعرفة الله الغريزية والتسبيح بفضل تصوّره الشامل للخلق (انظر "الفتوحات المكية"، فصل ١٩٨). بل بالنسبة إلى الإنسان فقد يتعارض تسبيح الحيوانات مع أمر التسخير. وعلى آية حال، يمثّل ابن عربي أكثر النظريات صرامة فيما يتعلق بتقوى الحيوان، وتستحقّ مدرسته الفكرية دراسات متعمّقة مجدّدة.

العلوم الاجتماعية

التاريخ

يؤدّي البحث عن أصل تصور التقوى عند الحيوانات إلى دراسة مقارنة بين نماذجها في الإسلام ونماذجها في ديانات الشرق القديم، بدءاً من اليهودية، بما أنّ الكتاب المقدّس يحتوي على الكثير من الشهادات لحيوانات مادحة (مثل: مزامير داود رقم ١٠٤ ورقم ١٤٨).

فكيف إذن أصبحت الحيوانات مثلاً على التقوى قد يحتذي به الإنسان؟ وما الأصل التاريخي لهذا الاهتمام الديني بالحيوان؟ يمكن للعودة إلى عصر ما قبل الإسلام ودور الطوطم الحيوان في الأديان الوثنية أن تجيب على هذا السؤال. فقد كانت لكل قبيلة حيوانات محددة تحميها وتعبدتها القبيلة لتأمين مساعدتها السحرية. ومن هذا المنظور فإن منع الصور في الإسلام هو منع للأصنام ولعبادة الطوطم

الحيوان. وبالتالي فإننا نرى في نموذج تقوى الحيوان شكل لتحوّل الوثن المعبود إلى وسيط بين العابد والإله المتعالي. ويمكن بالتالي أن نطبق هذه الفرضية على تحوّل عبادة الكواكب إلى تجييدها واعتبارها ملائكة (انظر الكندي، "الرسالة في الإبانة عن سجود الجرم الأقصى"، و"رسالة في روحانيات الكواكب").

وأما عن التأمّلات الأنثروبولوجية التي بدأها ويليام روبرتسون سميث (William Robertson Smith)² عن الطوطمية قبل الإسلام والانتقادات التي وجهها إليه جوزيف شلهود (Joseph Chelhod)³ لا سيّما بشأن التضحية كتواصل مع الإله، فإنّها تستحقّ إعادة تقييمها وفتح باب النقاش حولها.

الدراسات المقارنة

إن الدراسات المقارنة لنصوص إسلامية ومسيحية قد تسلّط الضوء على الشروط اللاهوتية لوجود صورة الحيوان العابد. فإذا كان الله يتجسّد وإذا كان المسيح يصبح "حمل الله"، أفلا يجعلنا ذلك نرى شكل من أشكال عبادة الحيوان وإن كانت رمزية؟ أما عن العالم اللاتينيّ في العصور الوسطى، فهل وجدت مثل تلك الشخصيات الحيوانية العابدة التي توجد في الإسلام؟ وهل تظهر كتب "قوروسيتاس" (العجائب) اهتماماً بأشكال التقوى عند الحيوان؟

الأثنولوجيا

من المدهش أنّ الحديث عن الحيوانات كعبيد لله قبل كلّ ما عداه لا يزال موضوعاً للبحث والنقاش. حيث نجد في فيلم البؤساء (٢٠١٩) للمخرج لادج لي مشهداً يستشهد فيه "صلاح"، وهو شخصية إسلامية متشددة تظهر في الفيلم، بزئير الأسد ويضع كلاماً على لسانه. وجدير بالذكر هنا أن الإسلام الشعبي من المغرب إلى الجزيرة العربية مليء بقصص خرافية عن الحيوانات ودورها في الدين والتدين. ولأن هذه القصص لم تُجمع وتُقدّم بالتقاليد الإسلامية المكتوبة ولأن المجتمعات الإسلامية تمر بحالة "تمدين" بوتيرة سريعة تسهم في اختفاء الفلكلور الشعبي فإننا في أمسّ الحاجات لأن ينبري جامعي التراث الشفوي بالعمل على جمع وتدوين تلك المادة قبل اندثارها تماماً.

لاهوت الأديان

إن لاهوت الأديان هو المجال الذي يطرح إشكالية مكانة العقيدة في عالم يعترف بتعددية المعتقدات، وبالتالي فإن اللاهوت هو المجال المختص بالتشريحات المرتبطة بمكانة أصحاب الملل الأخرى والملحدّين. وهكذا فإن المسألة الأولى للاهوت الأديان هي مسألة الخلاص الأبدي لأصحاب المعتقدات الأخرى وكذلك لغير المؤمنين بأيّ دين أصلاً، أي هل هناك فرق بين التقوى الدينية العامة وبين التمسك بعقيدة مرتبطة بدين معيّن؟

ويبدو أنّ صورة الحيوان العابد تفتح تساؤلات جديدة في لاهوت الأديان، بما أنّها تسهل الاعتراف بالغيرية الدينية، ليس في ظلّ معتقد معيّن فحسب، بل في ظلّ المعتقدات كلّها، حيث إنها تطرح السؤال التالي: هل هناك فرق بين التقوى الدينية والإقرار

² William Robertson Smith, « Animal Worship and Animal Tribes among the Arabs and in the Old Testament », *Kinship and Marriage in Early Arabia*, chap. VII « Totemism », *Animal Worship and Animal Tribes among the Arabs and in the Old Testament*.

³ Joseph Chelhod, *Le sacrifice chez les Arabes*, Paris, Presses Universitaires de France, 1955, *Les structures du sacré chez les Arabes*, Paris, Maisonneuve Larose, 1964, chap. 6.

بديانة ما؟ إذ أن هذا الفرق ضروريّ بسبب مكانة الطقوس الدينية وبعدها الاجتماعي و"المهويّاتي". إن صورة الحيوان العابد تجعلنا نسأل: هل ما زلنا نعبد الخالق أم أن العبادة قد أصبحت في بعد من أبعادها ظاهرة اجتماعية فقط؟ أو على العكس تماماً من ذلك، هل عبادة الإنسان للخالق مشروطة بتصور نوع من العبادة يعبد فيه جميع المخلوقات الخالق؟ لا شك من أن القضية هاهنا تتعلق بالحفاظ على الشكلي التعبدية للطقوس الدينية والوقوف في وجه الرجوع إلى الشكل القبلي والعصبيّ للدين.

القياس بالحيوان

نظرية المعرفة

تتعلق مسألتنا المنهجية بنوع التفكير الذي يؤدي إلى قبول فكرة الحيوان كعابد. فيمكننا مثلاً الاعتماد على الإطار الفكريّ لفريدريك بويتينديجك (Frederik Buytendijk) الذي بنى علم نفس الحيوان بعيداً عن علم النفس البشريّ المؤسس على مفهوم الوعي، وبمعزلٍ عن فكرة اختزال الحيوان في صورة آلة ليس لها هدف أو نية. ففي الصفحات الأولى لكتابه "الإنسان والحيوان، مقالة في علم النفس المقارن" حلل بويتينديجك خصوصيات القياس الذي يطبق الوعي البشريّ على الحيوانات. ويمكن وضع الاستعمال اللاهوتيّ لهذا النوع من القياس بين أنواع المخلوقات في منظور الجدل في علم الكلام حول نظرية الجريمة واستعمال القياس للاستشهاد بالمخلوق على الخالق. أما المفهوم الثاني فهو مفهوم الأمة وهي فئة تصنيف للحيوانات والبشر على حد سواء، بما أن جغرافيا الحيوانات تعكس الجغرافيا البشرية.

وبالطبع يمكن معالجة مسألة درجة الاقتناع بهذه التفسيرات الدينية لسلوك الحيوانات، حيث دارت بالفعل نقاشات بشأنها، لا سيما فيما يتعلق بالآية القرآنية (النمل ٨٢) التي تتبأ بدابة ستخرج من الأرض لتخاطب البشر (انظر مثلاً كتاب الجاحظ في الحيوان، ج٧، ص٥٠).

الأنثروبولوجيا الفلسفية

نستطيع في النهاية أن نسائل المقارنة التي نعقدها بين الإنسان والحيوان من منظور نقديّ نذكر فيه تحذير الفيلسوف غونتر أندرس (Günther Anders) من الافتتان المبالغ فيه بصورة الحيوان، والذي قدّمه في كتابه "تقادم الإنسان":

"في الفلسفة، من الخطر أن نلجئ إلى نموذج لم يعد يتوافق مع الوجود البشريّ لتحديد الإنسان، إذ لم نعد نعيش مواطنين بالنحل والسرّاطين والقرود، بل أصبحنا مواطنين بالأجهزة اللاسلكية والمصانع التي تنتج المصباح الكهربائيّة".

فالأنثروبولوجيا الفلسفية التي دائماً ما تعود إلى مقارنة الإنسان بالحيوان تلعب في بعض الأحيان دور ستارٍ أيديولوجي تخفي وراءه حقيقة حال الإنسان الذي يعيش محاطاً بالآلات بعيداً كل البعد عن الحيوانات. وفي الوقت نفسه، فإنّ شخصية الحيوان العابد غريبة عن تصوّرنا المعاصر للحيوان لدرجة أنّها تُظهر الاختلاف العظيم بين العالم الإسلاميّ القديم وعالمنا الذي نعيش فيه اليوم. فإذا كان عالمنا عالم التكنولوجيا وعالم البيئة الميكانيكية، فإنّ صورة الحيوان العابد علامة على عالم آخر مليء بالفاعلين وليس بالأشياء غير الفاعلة، عالم بعيد كل البعد عن ذلك الذي يمتلئ بأدوات تحت تصرفنا ومصنوعة لاستعمالنا، بل إنه عالم مليء بالتراتيل وبالطرق على أبواب الرحمن.

ولكننا كذلك لا نريد أن ننكر البعد التقني للحيوانات، بل من المنطقي أن نحلل عقيدة التسخير من منظور تاريخ التكنولوجيا، إذ يسلط هذا الضوء على أهمية القدرة الإنتاجية للحيوان وقوة عمله.

إضافة إلى ذلك يمكننا التشكيك في الفجوة القائمة بين عالم المخلوقات المليء بالذوات العابدة وعالم الأدوات البشرية ومركزية الإنسان فيه، وذلك اتّباعاً للطريق الفكريّ الذي بدأه دومينيك فيدال عندما ربط الهندوسية بالروبوتات.⁴

لمعينة بقية المراجع راجع النسختين الإنجليزية والفرنسية.

⁴ Dominique Vidal, « Anthropomorphism or sub-anthropomorphism? An anthropological approach to gods and robots », *Journal of the Royal Anthropological Institute*, vol. 13 (2007), p. 917-933.